مراتب الموحدين

بين (إياك نعبد) و (إياك نستعين)

اصول المنازل: العلم، المحبة، التعظيم، التوكل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد :

فإن آفة العلم الوقوف منه على "التنظير" إذ إنما يقصد العلم للعمل، وإن أشرف العلم علم التوحيد إذ هو الذي أرسلت به الرسل، وكان أكثر الناس لا يفطنون منه إلا على حده الأدنى الي يُخرج المرء عن دين أبي لهب وأبي جهل، فأردت أن أجمع فيه شيئا يكشف عن درجات كماله التي يتنعم فيها الرسل وأتباع الرسل، عسى الله أن يبلغنا بحبهم والإجتهاد في التأسي بهم ما لا يبلغه منا العمل، ولا حول ولا قوة إلا بالله هو حسبي وعليه المتكل.

عشية يوم عرفة / 1442هـ

19/7/2021م (1)

(1) كان من عاجل البشرى -بإذن الله- بعد شروعي في هذا الكتاب أني رأيت فيما يرى النائم أني إقتنيت مكتبة صغيرة الحجم قد حوت أمهات الكتب في كل فن حتى أن الناس يتعجبون من نفاستها مع صغر حجمها، وأنا ممسك في يدي بكتاب [الشفا] للقاضي عياض أقول للناس: هذا أنفسها عندي!.

أولا/ أصل التوحيد.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى :

[قوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ} فيه ثماني حالات :-

الأولى/ ترك عبادة غير الله مطلقا، ولو حاوله أبوه وأمه بالطمع الجليل والإخافة الثقيلة ، كما جرى لسعد رضي الله عنه مع أمه.

الحالة الثانية/ أن كثيرا من الناس إذا عرف الشرك وأبغضه وتركه، لا يفطن لما يريد الله من قلبه من إجلاله ورهبته، فذكر هذه الحالة بقوله: {وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} .

الحالة الثالثة/ إن قدرنا أنه ظن وجود الترك والفعل فلا بد من تصريحه بأنه من هذه الطائفة، ولو لم يقض هذا الغرض إلا بالهرب عن بلد فيها كثير من الطواغيت الذين يبلغون الغاية في العداوة، حتى يصرح أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم.

الحالة الرابعة/ إن قدرنا أنه ظن وجود هذه الثلاث، فقد لا يبلغ الجد في العمل بالدين، والجد والصدق هو إقامة الوجه للدين.

الحالة الخامسة/ إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الأربع، فلا بد له من مذهب ينتسب اليه، فأمر أن يكون مذهبه الحنيفية، وترك كل مذهب سواها ولو كان صحيحا، ففي الحنيفية عنه غنيه.

الحالة السادسة/ إنا إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الخمس، فلا بد أن يتبرأ من المشركين، فلا يكثر سوادهم.

الحالة السابعة/ إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الست، فقد يدعو من غير قلبه نبيا أو غيره لشيء من مقاصده ولو كان دينا، يظن أنه إن نطق بذلك من غير قلبه لأجل كذا وكذا -خصوصا عند الخوف- أنه لا يدخل في هذا الحال.

الحالة الثامنة/ إن ظن سلامته من ذلك كله لكن غيره من إخوانه فعله خوفا أو لغرض من الأغراض، هل يصدق الله أن هذا ولو كان أصلح الناس قد صار من الظالمين، أو يقول: كيف يكفر وهو يحب الدين ويبغض الشرك؟.

وما أعز من يتخلص من هذا .. بل ما أعز من يفهمه وإن لم يعمل به .. بل ما أعز من لا يظنه جنونا!، والله أعلم] "مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب".

فإذا وجدت هذه الحالات الثمان عند رجل فقد جاء بـ"أصل التوحيد" الذي به يفارق دين المشركين وسار بذلك خطوة في طريق الأنبياء والمرسلين، ثم تتفاوت مراتب الناس بعد ذلك في التوحيد وتكميله بحسب سيره في هذا الطريق، ويُعانون بـ" الهداية" في العلم و"التوفيق" في العمل بحسب إجتهادهم فيه {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}.

ثانيا/ كمال التوحيد (تحقيق التوحيد) .

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله [من محمد بن عبد الوهاب، إلى ثنيان بن سعود، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، سألتم عن معنى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} ، وكونها نزلت بعد الهجرة، فهذا مصداق كلامي لكم مراراً عديدة أن الفهم الذي يقع في القلب غير فهم اللسان. وذلك أن هذه المسألة من أكثر ما يكون تكراراً عليكم، وهي التي بوب لها "الباب الثاني" في كتاب التوحيد] "الرسائل الشخصية"، وقد قال رحمه الله في مسائل هذا الباب المذكور [الأولى/ معرفة مراتب الناس في التوحيد].

ومراتب الناس في العلم بالتوحيد والعمل به ثلاثة :

الأولى/ علم النص: وهو الذي سماه الإمام محمد "فهم اللسان"، وهو معرفة الحق بدليله.

الثانية/ علم العقل: وهو إبصار آثار هذا الحق في الوجود وبرهنته من خلالها، وهو "التفكر".

الثالثة/ علم النفس: وهو إنصباغ النفس بالتوحيد بحيث يكون لها سجية لا يحتاج معها إلى

وأقل الكمال في التوحيد/ (تحقيق معنى الشهادتين) وذلك بلزوم الأصلين :-

1- البراءة من الشرك وأهله: وهو مقتضى "لا إله إلا الله".
2- البراءة من البدع وأهلها: وهو مقتضى "محمد رسول الله".

فمن جاء بهاذين الأصلين فقد حقق من التوحيد أقل الكمال وبلغ أولى درجات (الولاية) ودخل في كل فضل جاءت النصوص به في أهلها، ولأهل هذه المرتبة أفرد الإمام محمد الباب الأول في كتاب التوحيد [باب/ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب]، قال أبو الوفاء بن عقيل [إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَحَلَّ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ فَلَا تَنْظُرْ إلَى زِحَامِهِمْ فِي أَبْوَابِ الْجَوَامِعِ، وَلَا ضَجِيجِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ بِلَبَّيْكَ، وَإِنَّمَا أُنْظُرْ إلَى مُوَاطَأَتِهِمْ أَعْدَاءَ الشَّرِيعَةِ] "الآداب الشرعية"، قال إبن القيم [فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته: فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى -الشرك والبدعة- ويكره ما يحبه -التوحيد والسنة- علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثره عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك، فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك ، فـ(الولاية) عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة] "الجواب الكافي"، قال الإمام مالك [لو أن العبد إرتكب الكبائر كلها بعد أن (لا يشرك بالله شيئا) ثم نجا من هذه (الأهواء) : لرجوت أن يكون في أعلى جنات الفردوس!؛ لأن كل كبيرة بين العبر وربه هو منها على رجاء، وكل هوى ليس هو منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم]" ذم الكلام وأهله" للهروي و "الجامع في عقائد أهل السنة" لعادل آل حمدان، قال إبن بطة [إجتاز بعض المحبين للبهبهاري ممن يحضر مجلسه من العوام وهو سكران على بدعي، فقال البدعي: "هؤلاء الحنبلية!" ، فرجع إليه وقال: الحنبلية على ثلاثة أصناف:-

- صنف زهاد يصومون ويصلون.
- وصنف يكتبون ويتفقهون.
- وصنف يصفعون كل مخالف مثلك.

وصفعه وأوجعه] "طبقات الحنابلة : 2/43" فهذا هو أقل الكمال في التوحيد وهي أولى درجات الولاية!.

ويجمع ذلك كله قوله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين}: فـ(فإياك نعبد) فيها البراءة من الشرك وأهله وموالاة التوحيد وأهله لقوله "نعبد" بصيغة الجمع، و(إياك نستعين) فيه البراءة من البدع وأهلها وموالاة السنة وأهلها لأنه أخبر أنهم في عبادتهم له لم يحدثوا شيئا من عند أنفسهم بل هم مستعينون في ذلك بوحيه -الكتاب والسنة-؛ قال إبن تيمية [جماع الدين أصلان:-

1- أن لا نعبد إلا الله.
2- ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع] "العبودية".

ولذلك قال رحمه الله [تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة {إياك نعبد وإياك نستعين}] "مدارج السالكين : 1/79" لأنه سؤال لكمال التوحيد وبلوغ درجة الإحسان فيه.

ومن هنا ايضا كانت هذه الآية العظيمة شعار من سبقنا من أهل التوحيد (إخوان من طاع الله) رحمهم الله فقد كانوا يحدون بها قوافلهم في الغزو والسفر كما ذكر ذلك عنهم الدميجي في كتابه [صفحات مطوية من تاريخ الجزيرة العربية].

وأما أعلى الكمال في التوحيد/ فهو [أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ولأهله درجات أربعة (الصالح) و (الشهيد) و (الصديق) و (النبي)، وأصحاب هذه المرتبة هم الذين أفرد لهم الإمام محمد الباب الثاني في كتاب التوحيد [باب/ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب]، وصفة تحقيق هذه المرتبة بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله [الدين النصيحة) قالوا: لمن؟ قال (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)] مسلم :-

النصيحة لله: بإسلام الخلق والتدبير والعبادة لله وحده، قيل لعيسى بن مريم عليه السلام [من الناصح لله؟ قال (الذي يبدأ بحق الله قبل حق الناس)] "الإخلاص لإبن أبي الدنيا"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا] متفق عليه، فالنصح لله هو توحيده والسلامة من الشرك أكبره وأصغره فإن "النصح" في اللغة هو الإخلاص والصفاء من الشوائب والأكدار.

1- **النصيحة لكتابه:** بتعظيمه والإحتكام إليه ورفعه على ما سواه والإقبال عليه تدبرا وعملا حتى يكون هو مرجع العلوم والأعمال كلها، وقد جاء في وصف نبينا صلى الله عليه وسلم [كان خلقه القرآن] بل قالت عنه أمنا عائشة رضي الله عنها [كأن وجهه ورقة مصحف]!، وكان السلف رضوان الله عليهم يتنافسون في إرجاع علومهم كلها إلى القرآن قال سفيان بن عيينة [لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن، فقال قائل: فأين في القرآن (أعط أخاك تمرة فإن أبى فجمرة)؟ فقال في قوله {فمن عش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا}] "الفوائد لإبن القيم: 84"، ومن عجائب إقبال أتباع دعوه الإمام محمد رحمهم الله للتوحيد على القرآن وعظيم تدبرهم فيه تفسيرهم قوله تعالى {قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق} أنه إستعاذة بالله من الشرك والبدع والذنوب فإنها شر ما خلق الله قال تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}.

النصيحة لرسوله: بإتباع سنته وإسلام القياد له محبة وتعظيما، وهذه المرتبة يتفاضل فيها حتى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فأجلهم تحقيقا لها -بعد النبي!- أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولذا نزل فيه وفي النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون} قال الإمام محمد بن عبدالوهاب [ومعلوم تفاضل الناس في الأعمال تفاضلاً لا ينضبط، وكل ذلك بسبب تفاضلهم في العلم؛ فيكفيك في هذا استدلال الصِّدِّيق على عمر في قصة أبي جندل، مع كونها من أشكل المسائل التي وقعت في الأولين والآخرين، شهادة أن محمداً رسول الله] "الرسائل الشخصية".

2- **النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم:** والأئمة هم "العلماء" و "الأمراء" الذين بهم يحفظ الإسلام وأهله، والنصح لهم بحفظ جنابهم وبيان فضلهم والإقبال عليهم، وتبكيت الطاعنين في الإسلام وأهله المفارقين لهم في دينهم وثقافتهم وعلومهم، قيل لسعيد بن المسيب [هاهنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر؟ فقال (نسكوا نسكا أعجميا)]، وقال ميمون إبن مهران في صفة أهل الإحسان [إعلم أنه لا يكون منهم : متماوتا، ولا مبتدعا، ولا طعانا على الأئمة]، ولما رمى رجل بكتاب عند الإمام أحمد غضب وقال [هكذا يفعل بكلام الأبرار؟!] "كشاف القناع".

فبحسب كمال تحقيق العبد لهذه الخصال الأربعة على جهة التفصيل **علما** و**عملا** تكون درجته في كمال "الإحسان" ومتى بلغ العبج في ذلك الغاية رأى يد الله في كل شيء وتنعم بحضرة أسمائه الحسنى وصفاته العلى على كل حال : ففي (النصح لله) يرى حكمة الله وعدله ورحمته وسائر أسمائه وصفاته في كل من شرعه وقدره**(2)**، وفي (النصح لكتابه) يرى فضله وعلوه على سائر الكتب وهيمنته عليها وكونه حبل الله الممدود بينه وبين خلقه، وفي (النصح لرسوله) يرى عظم المرسل له المصطفيه على الخلق الرافع لذكره المعلي لشأنه المكمل خلقه وخلقه، و (النصح للأمة) يرى تفضيل الله لها وإصطفاءه إياها وتخييرها على سائر الأمم؛ فهو في ذلك كله ينظر متعبدا لله مستعينا به متعرفا عليه قال النهرجوري في وصف إبراهيم عليه السلام [كان ذهابه من الله وبالله وإلى الله، وذلك علامة التوحيد].

فائدة: للإمام الشافعي رحمه الله كلمة كاشفة عن كمال توحيده وتحقيقه لخصال الإحسان الأربعة وهي قوله [كل ما قالته الأمة -النصح للأئمة- راجع إلى السنة -النصح للرسول-، وكل مافي السنة راجع إلى الكتاب العزيز -النصح للكتاب-، وكل مافي الكتاب العزيز راجع إلى أسماء الله الحسنى -النصح لله-] "البرهان للزركشي" .. وهذا هو معنى (أن تعبد الله كأنك تراه)!.

وهذه المرتبة هي غاية أهل التوحيد وأعظم مطلوبهم: قال إبراهيم عليه السلام {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، وقال يوسف عليه السلام {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، وقال سليمان عليه السلام {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}، وقال تعالى مبشرا أهل التوحيد والسنة {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا}؛ والله نسأل من واسع فضله فقد قال جل في علاه {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} قال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله [ليس في خزائن الله أكبر من التوحيد] "حلية الأولياء: 10/196" .. {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ}.

(2) ومن ذلك أن الشيخ عبدالرازق عفيفي رحمه الله كان إذا ذكر حادة إحراق مكتبة بغداد على يد المغول عد ذلك خيرا من حيث يراه الناس شرا، وأن ما ذهب من الكتب فيها كان من لطف الله وعنايته بهذه الأمة حيث أبقى لها ما هي محتاجة إليه وصرف عنها ما يلهيها عن ذلك وأبقى لها ما يغنيها عن غيره، وقد ذكروا ان الإمام مالك حين صنف موطأه قيل له: إن الناس قد جمعوا موطأت؟ فقال [ما كان لله بقي] فكأنما ألقيت تلك الموطآت في بئر فلم يصلنا منها شيء، فتاريخ أهل الإسلام وما فيه من أحداث كله خير لمن نظر إليه بعين التوحيد والسنة ففي الحديث [عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن].

ثالثا/ الأصول الأربعة للسلوك في طريق تحقيق التوحيد.

قال تعالى **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.**

أربع منازل هي المحطات الكبرى في السير إلى الله وما بعدها تابع لها ثمرة عليها قال تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} فهذه المنازل الأربعة هي غرس التوحيد الذي متى ثب في قلب العبد أثمر له سائر منازل السلوك في طريق تحقيق التوحيد.

وهذه المنازل الأربعة هي :

1- منزلة العلم {بسم الله الرحمن الرحيم}.
2- منزلة الذكر {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم}.
3- منزلة التعظيم {مالك يوم الدين}.
4- منزلة التوكل {إياك نعبد وإياك نستعين}.

ويدل على أن ما بعد هذه المنازل تبع لها وثمرة منها الحديث القدسي العظيم [إن اللهَ تعالى يقولُ : قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين ، نصفُها لي ونصفُها لعبدي ولعبدي ما سألَ ، فإذا قالَ : { الحمدُ للهِ ربِّ العالمين } قالَ اللهُ : حمِدني عبدي ، وإذا قالَ : { الرحمنُ الرحيمُ } قالَ اللهُ : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قالَ : { مالكِ يومِ الدينِ } قال اللهُ عز وجل : مجّدني عبدي ، وفي روايةٍ فوَّضَ إليَّ عبدي ، وإذا قالَ : { إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ } قال : فهذه الآيةُ بيني وبين عبدي نصفينِ ولعبدي ما سألَ ، فإذا قالَ : { اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالينَ } قال : فهؤلاءِ لعبدي

ولعبدي ما سألَ] رواه مسلم، فدل على أن ما بعد {إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ} ثمرات لمن أتى بها وبما قبلها من المنازل المذكورات.

وهذا بيانها :-

1- منزلة العلم

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}(3)

قال الإمام أحمد [ما إتخذ الله وليا جاهلا، لو إتخذه لعلمه]، قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله [لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط لا تنفع قائلها إلا بإجتماعها: أحدها/ العلم المنافي للجهل] "فتح المجيد"، قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله [إعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربعة مسائل: الأولى/ العلم: وهو معرفة الله] "ثلاثة الأصول" قال قوام السنة الأصفهاني رحمه الله [قال بعض العلماء : أول فرض فرضه الله على خلقه (معرفته)، فإذا عرفه الناس (عبدوه)؛ قال تعالى {فإعلم أنه لا إله إلا الله وإستغفر لذنبك}].

والعلم بالتوحيد مراتب ثلاثة بينها ربنا عز وجل في قوله {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ (الْكِتَابَ) وَ(الْحُكْمَ) وَ(النُّبُوَّةَ) ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ} :-

- **فالمرتبة الأولى/ علم النص:** وهو معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة والإيمان بها بإثباتها لفظا ومعنى والعمل بمقتضاها؛ وهذه هي "مرتبة الإسلام".
- **المرتبة الثانية/ علم الفكرة:** وهو تنزيل هذه الأسماء والصفات على الواقع والتبصر بآثارها فيه والفقه في أحكامها -الشرع والقدر- قال تعالى {وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ليس المخبر كالمعاين)] "الداء والدواء: 51"؛ وهذه هي "مرتبة الإيمان" وهي برزخ بين ما الإسلام والإحسان .
- **المرتبة الثالثة/ علم النفس:** وهو ثمرة إستقرار (علم النص) و (الفكرة فيه) في قلب العبد قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}، وأهل هذه المرتبة صفات الله حاضرة في قلوبهم ماثلة بين أعينهم فهم في حضرة الرب يتنعمون يعبدونه كأنهم يرونه؛ وهذه هي "مرتبة الإحسان" التي يكون القلب فيها كامل الحياة بإستشعاره حضور ربه على كل حال كما جاء في وصف نبينا عليه الصلاة والسلام [إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ] رواه البخاري، وأهل الكتاب يجدون في كتابهم أن دعاء عيسى عليه السلام لأصحابه كان [اللهم أعطهم الحياة الأبدية: وهي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك].

قال الشيخ السعدي رحمه الله [فبحسب معرفة العبد بربه يكون إيمانه، فكلما إزداد معرفة بربه إزداد إيمانه وكلما نقص نقص، وأقرب طريق إلى ذلك: تدبر صفاته وأسماءه في القرآن] "التفسير: ١/٢٤"، ومن عظيم فقه الصحابة رضي الله عنهم الكاشف عن علو مرتبتهم في التوحيد أن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل عن أعظم آية في كتاب الله علموا أنها (آية الكرسي) لأنها أطول آية أُخلصت في الحديث عن اسماء الله وصفاته، [ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لأنها أُخلصت لوصف الرحمن تبارك وتعالى والثناء عليه] "زاد المعاد: ٦٦" فظهر أنه كلما كان الشيء ألصق بالعلم بأسماء الله وصفاته كانت منزلته أعظم وفضله أكبر ، وبالمقابل فقد جاء في ذكر أدنى أهل الجنة منزلة أنه [ينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفع له قصر من درة فيخر ساجدا، فيقال له: إرفع رأسك مالك؟ فيقول: رأيت ربي أو تراءى لي ربي!، فيقال

له: إنما هو منزل من منازلك] رواه عبدالله بن الإمام أحمد في "السنة" و الدارقطني في "الرؤيا" .. فهذه هي منزلته في العلم بالله!.

ولما كان العلم بالله هو رأس كل خير صار الجهل به هو رأس كل شر قال الإمام إبن القيم مقررا ذلك بكلمة جليلة تسع الدنيا وتملأها علما ونورا [أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة؛ ومنشأ هذه الأربعة من جهله بـ"ربه" وجهله بـ"نفسه"! ،فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحد على ما آتاه الله] "الفوائد: ١٧٧".

فائدة: كل جهل وخطأ من الإنسان في فهم "الشرع" و "القدر" -الذين هما أثر أسماء الله وصفاته- إنما ينشأ من نظره في بعض صفات الله دون بعض فتكون صورة الرب في نفسه صورة ناقصة تنشئ له فهما ناقصا لخلقه وأمره سبحانه وتعالى، وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت [كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا أمَرَهُمْ، أمَرَهُمْ مِنَ الأعْمَالِ بما يُطِيقُونَ، قالوا: إنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ قدْ غَفَرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ في وجْهِهِ، ثُمَّ يقولُ: إنَّ أتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللَّهِ أنَا] وقال عليه الصلاة والسلام [رأيتُ ربِّي في أحسنِ صورةٍ] رواه الترمذي وإبن خزيمة، فكمال التقوى والإحسان من كمال العلم بالله وكل مخالفة وخروج عن السنة من الجهل به جل في علاه، فأنت إذا تأملت كل ضلالة في فهم خلق الله -القدر- أو أمره -الشرع- وجدتها راجعة إلى هذا الباب.

مسألة/ للإنسان "قلب" له بصيرة و"عقل" له بصر، والعلم يسلك منه الطريقين ويملأ منه كلا الجانبين، وقد يسبق العلم القلبي عند العبد علم العقل فيعرف الحق قبل الوقوف على دليله لقوة نور القلب ونفاد البصيرة وفي الحديث [(إنَّ اللَّهَ جعلَ الحقَّ على لسانِ عمرَ وقلبِهِ) وقالَ ابنُ عمرَ: ما نزلَ بالنَّاسِ أمرٌ قطُّ فقالوا فيهِ وقالَ فيهِ عمرُ إلَّا نزلَ فيهِ القرآنُ على نحوِ ما قالَ عمرُ] رواه الترمذي، وقد يقع العكس فيسبق علم العقل علم القلب وتقصر البصيرة عن إدراك ما يدركه البصر إمتحانا من الله لعبودية العبد له وتوكله عليه وإستسلامه لأمره كما وقع لعمر بن الخطاب نفسه يوم الحديبية؛ والكمال هو الجمع بين الأمرين "علم القلب" و "علم العقل" وجعل كل منهما طريقا موصلا إلى الآخر دافعا لطلبه والحرص على تحصيله قال جندب بن عبدالله رضي الله عنه [كنَّا معَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ فتيانٌ حزاورةٌ فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعلَّمَ القرآنَ ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازددنا بِه إيمانًا] رواه إبن ماجه.

وقد ضل في هذا الباب فريقان: فرقة حكمّت الأهواء وذوق القلوب وأحوال الأمزجة ولم ترفع بالعلوم النقلية و العقلية رأسا فهم الذين قال الله فيهم {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} وأولئك هم (الضالون)، وفرقة أخرى إكتفت من العلم برسومه وقلوبهم عنه غلف لا تبصر نوره ولا تذوق حلاوته وهم الذين قال الله فيهم {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} وأولئك هم (المغضوب عليهم)؛ أما أهل التوحيد فهم الذين جمعوا بين الخيرين وإستضاءوا بكلا النورين وهم الذين قال الله فيهم {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} وأولئك (الذين أنعم الله عليهم).

مسألة/ أشرف العلم (العلم بالله) وهو داخل في العلوم كلها، ومن هنا لم يكن عند التحقيق تفاضل بين العلوم بل كل ما عرف العبد ربه في كل علم فهو أشرف ما في هذا العلم، والناس يختلف إنتفاعهم بالعلوم بحسب ميل نفوسهم وإختلاف أطباعهم، وقد وزع الله حججه على العلوم كلها ليعم النفع جميع بني آدم قال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} :

ففي كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد

فكل علم أورث صاحبه معرفة بالله ومحبة له وتعظيما فهو أشرف العلوم في حقه فإن الله ضبط العلم النافع بقوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} فما كان من العلوم هذا أثره في نفس صاحبه فهو العلم النافع له، ولذا كان من فقه الإمام مالك في ذلك في رسالته لعبد الله العمري العابد حين كاتبه يحضه على إعتزال الناس والإشتغال بالعبادة فقال [إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد؛ فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجوا أن يكون كلانا على خير وبر] "سير النبلاء: ٨/١١٤" والعلوم مقسمة كالأرزاق والأعمال.

تنبيه: من أعظم النوايا الصالحة في طلب العلم والتي قد تخفى على بعض الناس: إستحضار مراغمة الشيطان و اهل الباطل وإغاظتهم بذلك! ، قال إبن جماعة [والعاقل يعلم أن أبرك الأيام عليه يوم يزداد فيه فضيلة وعلما ويُكسب عدوه من الجن

والإنس كربا وغما] "تذكرة السامع والمتكلم" وفي الأثر [فقيه واحد اشد على الشيطان من ألف عابد] "جامع بيان العلم وفضله"، ويروى عن إبن عباس رضي الله عنه [إن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه؟ قال: انطلقوا! ، فانطلقوا الى عابد فاتوه في عبادته فقالوا: إنا نريد ان نسألك، فانصرف فقال ابليس: هل يقدر ربك ان يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري، فقال: اترونه كفر في ساعة!، ثم جاؤوا الى عالم في حلقته يضاحك اصحابه ويحدثهم فقالوا: إنا نريد ان نسألك، فقال: سل، فقال هل يقدر ربك ان يجعل الدنيا في جوف بيضة؟، قال: نعم، قالوا: كيف؟ قال: يقول "كن" فيكون، فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالما كثيرا] "مفتاح دار السعادة"، فإستحضار مراغمة شياطين الجن والإنس من كمال توحيد الولاء والبراء [فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى (عبودية المراغمة) ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له، فمن تعبَّد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأوَّل، وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله] "مدارج السالكين".

الخلاصة في منزلة العلم :-

1- **مرتبة {إياك نستعين} :** وهي إثبات الأسماء والصفات لفظا ومعنى كما جاءت في الكتاب والسنة، والتفكر في آثارها في الوجود والإستعانة بذلك على ترسيخ التوحيد غي القلب، وهذه أولى مراتب التوحيد وأهلها هم الذين قال الله فيهم {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وهذه المرتبة هي التي بوب لها الإمام محمد بن عبدالوهاب الباب الأول من كتاب التوحيد **[باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب]**.
2- **مرتبة {إياك نعبد} :** وهي النظر في أسماء الله وصفاته تعبدا وإلتذاذا بها بعد أن رسخت معانيها في القلب بشدة التصديق وطول الفكرة، وهذه أعلى مراتب كمال التوحيد وهي التي في قول موسى عليه السلام {رب أرني أنظر إليك} أراد عليه السلام أن يلتذ بذلك النظر ويتنعم به، وهذه المرتبة هي التي بوب لها الإمام محمد الباب الثاني من كتاب التوحيد **[باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب]**.

نكتة/ ذكر العلماء أن الباء في [بسم الله]: إما أن تأتي للإستعانية فيكون المعنى (أبدأ مستعينا بإسم الله) فالأسماء والصفات هنا وسيلة لتحصيل العلم بالله وهذه مرتبة {إياك نستعين}، وإما أن تأتي للمصاحبة فيكون المعنى (أبدأ مستحضرا إسم الله مستصحبا النظر إليه) فالأسماء والصفات هنا هي الغاية المطلوبة وهذه مرتبة {إياك نعبد}.

ومتى عرف العبد ربه وفهم معنى "لا إله إلا الله" أثمر له ذلك أعظم الثمر وأنفعه في الدنيا والآخرة قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ..

(3) من أنفع الكتب في هذا الباب [ولله الأسماء الحسنى] للشيخ عبدالعزيز الجليل، و [أعلى النعيم] للشيخ سيد العفاني.

2- منزلة المحبة

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}(٤)

إعلم رحمك الله أن أولى ثمرات (العلم بالله) هي "المحبة" ولذا كانت من شروط لا إله إلا الله السبعة، قال ابن القيم [من ترف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحبه لا محالة] "الجواب الكافي: 99"، ومعلوم أن علامة المحبة دوام ذكر المحبوب، والذكر للتوحيد كالوقود للنار به يقوى في النفس ويشتد وبدونه يخبو ويضعف في القلب قال عليه الصلاة والسلام [إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدِكُمْ كَما يَخلَقُ الثَّوبُ ، فاسْأَلُوا اللهَ تعالَى : أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكمْ] الطبراني والحاكم، وقال [مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ] البخاري.

وحقيقة "الذكر" هي التذكر والتفكر:

- تذكر أسماء الله وصفاته وإستحضارها.
- والتفكر في آثارها في الوجود -الشرع والقدر-.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله [الطمأنينة إلى أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها وإعتقادها، وطمأنينة إلى ما توجبه من آثار؛ وهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها وإعتقادها] "الروح: ٢٧٩"، وذكر الله على هذه الهيئة هو الذي يورث صاحبه (الحب) و (التعظيم) الذان هما قاعدة التوحيد في القلب ومن هنا جمع الله الحالين في سورة الفاتحة فقال في التعظيم {رب العالمين} وقال في المحبة {الرحمن الرحيم}؛ فكل ذكر لله فإنما يرجع إلى هاذين الأصلين.

وللذكر مع التوحيد حالان :-

الأولى/ تثبيت العبد في المرتبة التي بلغها في التوحيد لكي لا ينزل عنها وترسيخ قدمه فيها بصبغ نفسه بها بحيث تصبح هذه المرتبة صبغة للنفس وسلوكا ذاتيا لا تحتاج معها إلى تكلف ومجاهدة، قال تعالى في التثبيت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، وقال في الترسيخ {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} أي ترسخ في الرتبة التي بلغتها في الإيمان وتنصبغ بها.

ومن هنا جعل الشرع دبر كل عبادة -يزداد بها المرء إيمانا- ذكرا يثبتها ويرسخ قدمه فيها.

الثانية/ الإزدياد بعد الرسوخ والترقي من مرتبته التي هو فيها إلى ما فوقها من مراتب التوحيد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} قال الإمام محمد بن عبدالوهاب [ومعلوم تفاضل الناس في الأعمال تفاضلاً لا ينضبط، وكل ذلك بسبب تفاضلهم في العلم؛ فيكفيك في هذا استدلال الصِّدِّيق على عمر في قصة أبي جندل مع كونها من أشكل المسائل التي وقعت في الأولين والآخرين بـ(شهادة أن محمداً رسول الله)!] "الرسائل الشخصية" فإن هذا العمق في العلم والرسوخ إنما يكون بكثرة ذكرها وطول الفكرة فيها ولذا جاء في الحديث [قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به؟ قال (يا موسى قل "لا إله إلا الله")] رواه إبن حبان.

والذكر هو زاد العبد في مسيره إلى الله ولذلك كان ملازما له في جميع منازل التوحيد فهو أول الطريق وآخره، وهو وصية الله لنبيه في آخر حياته حين نعاه في سورة النصر، وقد أثنى به الله على أنبياءه فقال {فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ}، وقال في إبراهيم عليه السلام {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، وقال {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}، وقال {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}، وفي ترجمة الإمام محمد [كان رحمه الله كثير الذكر لله قلما يفتر لسانه من قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وكان إذا جلس الناس ينتظرونه يعلمون إقباله إليهم قبل أن يروه من كثرة لهجه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير] "عنوان المجد: ١/١٨٠"، وكذلك كان أتلاع دعوته (إخوان من طاع الله) رحمهم الله قال الدميجي [كثيروا التلاوة للقرآن ولو مما حفظوه من قصار السور، وغزيروا التسبيح والإستغفار والذمر، إذا أقبل الليل وجاء الأصيل لزموا المساجد للذكر والتسبيح والتهليل، وإذا أقبل السحر لبوا نداء القيام والوتر والدعاء والضراعة وصفوا أقدامهم للقيام وراوحوا بينها وبين الجباه، لصدورهم أنين ولعيونهم دموع ولبيوتهم دوي كدوي النحل من القرآن والبكاء والدعاء، كسرت الدعوة وحرارة الإيمان جفاء باديتهم وشدة طبعهم فنصعت معادن العرب الأول وإنقادوا للقرآن فتضوع المسك والإذخر و (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)، وكانوا يشبهون سفر بن محسن بالوتد لطول صلاته بالليل كذلك ناصر بن الحارث

وبجاد بن ثامر وسلطان بن بجاد في آخين كثر من الإخوان رحمهم الرحمن الرحيم، ويتحلقون حول من يقرأ عليهم (مجموعة التوحيد) أو (مجموعة الحديث) ولهم نشيج ونهيج! ، قال أحدهم: دخلت المسجد قبل غيبوبة الشمس فعددت فيه إثني عشر صفا قد سبقوني ولهم همهمة بالتسبيح والإبتهال والذكر] "صفحات مطوية من تاريخ الجزيرة العربية: ٤٣٣"، قال عامر بن قيس [سمعت غير واحد ولا إثنين ولا ثلاثة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان "التفكر"] تفسير إبن كثير: ٢/١٨٥.

مسألة/ أعظم الذكر (لا إله إلا الله) فإن هذه الكلمة هي "أم الذكر" كما أن الفاتحة هي أم القرآن الجامعة لمعانيه، وذلك أن لا إله إلا الله تجمع معاني الأذكار كلها فما من ذكر إلا وعنها يصدر وإليها يرجع، وإليك بيان شيء من ذلك:-

قال عليه الصلاة والسلام [إن الله إصطفى من الكلام أربعا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر] الهيثمي.

1- فـ "التسبيح" : هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص؛ وأعظم التسبيح تنزيه الله عن الشريك {سبحانه وتعالى عما يشركون} .
2- و "التحميد" : هو إثبات كل كمال له جل في علاه؛ وأعظم الحمد إثبات تفرده بالألوهية {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [فأبلغ الثناء قول: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] "مجموع الفتاوى: ١١/٦٩٧" .
3- و"التكبير" : هو نفي المكافئ والشبيه له في ذلك كله -إثبات الكمال ونفي النقص-؛ فأعظم التكبير الشهادة له بالتوحيد {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}.

ومن هنا جاء في الحديث [مَن سَبَّحَ اللَّهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ، وقالَ: تَمامَ المِئَةِ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطاياهُ وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ] رواه مسلم، فجعل (لا إله إلا الله) خاتمة الذكر التي تجمع معانيه.

وسر المسألة: العلم بلا إله إلا الله، ومن هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، فإن العلم بهذه الأصول الكبار يتفاضل فيه الأنبياء فضلاً عن غيرهم، ولما نهى نوح بنيه عن الشرك أمرهم بلا إله إلا الله؛ فليس هذا تكراراً، بل هذان أصلان مستقلان كبيران، وإن كانا متلازمين، مع أن في الوصية بـ(لا إله إلا الله) ملازمة الذكر بهذه اللفظة والإكثار منها، ويتبين عظم قدرها كما بين صلى الله عليه وسلم فضل سورة {قل هو الله أحد} على غيرها من السور فقد ذكر أنها تعدل ثلث القرآن مع قصرها، وكذلك حديث موسى عليه السلام فإن في ذكره ما يقتضي كثرة الذكر بهذه الكلمة، كما في الحديث (أفضل الذكر لا إله إلا الله) والسلام] "الرسائل الشخصية للإمام محمد".

مسألة/ أعظم مواطن الذكر هو (الصلاة) قال الإمام إبن رجب رحمه الله [والذكر المطلق يدخل فيه: الصلاة، وتلاوة القرآن، وتعلمه وتعليمه، والعلم النافع، كما يدخل فيه التسبيح والتكبير والتهليل] "جامع العلوم والحكم" فقدم الصلاة على سائر المواطن لأنها أعظمها قال تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي ذكره في الصلاة لأنه اعظم مقاصدها كما قال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}.

والصلاة ميزان التوحيد والمرآة الكاشفة عن منزلة العبد في تحقيقه قال الإمام أحمد [قدر الإسلام في قلبك قدر الصلاة في قلبك]، إذ هي التي تربي النفس على إستقامة توجه القلب لله تعالى وترك الإلتفات إلى غيره فهي التطبيق العملي للتوحيد قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}، وفي الحديث [وإنَّ الله أمركم بالصَّلاة، فإذا صَلَّيتُم فلا تَلْتَفِتوا؛ فإنَّ اللهَ يَنصُبُ وجهَه لوجهِ عبدِه في صلاتِه ما لم يَلتفِتْ] الترمذي، وفي مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه [وكانَ أبو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنه لا يَلْتَفِتُ في صَلَاتِهِ] البخاري وذلك من كمال توحيده رضي الله عنه وقد بلغ من ذلك أن أهل مكة كانوا يتعجبون من صلاته ويجتمعون لمشاهدتها!.

وما يعرض للعبد في صلاته من أمور الدنيا مما يلفت قلبه عن ربه فإنما هي "أوثان قلبية" يزاحم بها الشيطان تحقيقه للتوحيد، قال عليه الصلاة والسلام [إذَا قَضَى التَّثْوِيبَ -الإقامة- أقْبَلَ الشيطان حتَّى يَخْطِرَ بيْنَ المَرْءِ ونَفْسِهِ، يقولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِما لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى] متفق عليه، وفي رواية [فَهَنَّاهُ ومَنَّاهُ، وذَكَّرَهُ مِن حاجاتِهِ ما لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ] مسلم، فالصلاة هي التي تكشف للعبد ما في قلبه من صور ينحتها الشيطان ويزينها له ليزاحم بها صورة الله في قلبه، وقد قال تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} اي إستعينوا بها على تحقيق التوحيد وطمس تصاوير الشيطان في القلب وتعويده الإستقامة وإقامة الوجه لله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يسأل ربه الصلاة المستقيمة التي لا إلتفات فيها فيقول في دعائه {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}، وحين أشغلت الخيل سليمان عليه السلام عن الصلاة نحرها {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} فأبدله الله الريح مكانها تحمله حيث يشاء، ومن فقه بعض الصحابة في ذلك وكمال توحيدهم أن بعضهم كانت له جارية حسناء دخلت عليه يوما وهو قائم يصلي فشغلت قلبه

فأشار إليها وهو قائم أنها حرة ولم ينتظر حتى يفرغ من صلاته!، والإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله صنف رسالتي [آداب المشي للصلاة] و [شروط الصلاة وأركانها وواجباتها] مع كون همه رحمه الله إنما كان منجمعا على التوحيد والدعوة إليه والدفاع عنه وبيانه للناس وذلك لعظيم فقهه بعلاقة الصلاة بتحقيق التوحيد وأنها مرآته الكاشفة عن منزلة العبد فيه كما قال [وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحية] "الدرر: ١٣/٢٤٦".

الخلاصة في منزلة الذكر:

1- **مرتبة {إياك نستعين} :** الإستعانة بالذكر على إستحضار معاني التوحيد وترسيخها في النفس، فالذكر هنا وسيلة لترسيخ العلم بالله في النفس ثم الترقي به بعد ذلك في درجات العلم والإيمان قال تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} الآيات.
2- **مرتبة {إياك نعبد} :** أن يصبح الذكر حركة نفس لا مشقة فيها ولا تكلف، فلا يجد العبد نفسه إلا ذاكرا لربه على كل حال بشعور وبدون شعور وفي الحديث في صفة أهل الجنة [يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كَما يُلهَمونَ النَّفَسَ] مسلم، فأهل هذه المرتبة يكون الذكر لهم أنسا ولذة تطلب لذاتها كما قال عليه الصلاة والسلام [إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ قالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، قالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وهو أعْلَمُ منهمْ- ما يَقولُ عِبادِي؟ قالوا: يَقولونَ: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ، ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَك] البخاري، قال سفيان الثوري [إذا ختم الرجل القرآن قبّل الملك بين عينيه!] "شعب الإيمان للبيهقي"، وفي الأثر [إن الملك ليصغي إلى قارئ القرآن كما يصغي أحدكم إلى قنيته]، قال إبراهيم بن أدهم [أعلى الدرجات: أن يكون ذكر الله عندك أحلى من الحسل وأشهى من الماء العذب الصافي عند العطشان في يوم صائف] "صلاح الأمة في علو الهمة: ٥/٧٠٥".

(٤) من أنفع الكتب في هذا الباب [فقه الأدعية والأذكار] للشيخ عبدالرزاق البدر، و [مختصر قيام الليل] للإمام المروزي.

٣- منزلة التعظيم

{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }(٥)

وثاني ثمرات (العلم بالله) تعظيمه جل في علاه قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، وعلامة التعظيم "التوبة" قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} قال إبن عباس رضي الله [العالم بالرحمن: من لم يشرك به شيئا، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله] "تفسير إبن كثير: فاطر/28"؛ فبين أن أصول الخير ثلاثة: تحقيق التوحيد، وإتباع السنة ولزوم الشرع، والمداومة على التوبة {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} .

قال إبن القيم [كثير من الناس إنما يعرِّف التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي وإن كان في حق آدمي : فلا بد من أمر رابع وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة بل شطرها، وإلا؛ فالتوبة في كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم كما تتضمن تلك الشروط ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به.

هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور، كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين.

وهي كلفظة "التقوى "التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر.

فإذاً التوبة هي حقيقة دين الإسلام والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

فإذا، التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً.

ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزء منها بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم] "مدارج السالكين".

والذنب قيد الشيطان الذي به يحبس العبد عن سعيه في تحقيق التوحيد ويخذّله به، فإذا تطهرت منه النفس قوي عزمها وجدت في السير إلى الله، وفي الحديث [يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ علَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذَا هو نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ] متفق عليه.

فالتحزين والتقنيط وتخبيث النفوس من حيل الشيطان التي يضعف بها عزم العبد ويقطع سيره إلى الله قال تعالى {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} وقال {إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} وقال {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}، ولذلك لم يكن معنى التوبة بقاء العبد أسيرا لذنبه ووقوفه عليه خائفا ونادما دون أن يجاوزه وإنما التوبة إنطلاقة جديدة للعبد في طريق تحقيق التوحيد يلقي فيها عن نفسه أحماله التي تثقل خطوه وتبطئ سيره كما قال تعالى {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب}.

والمبالغة في التحزن وتعاظم الذنوب على رحمة الله والوقوف من الذنب على (الترك) و(الندم) دون (تجديد العزم) فإنه من القنوط وهو من نسك العجم الذي يشغلهم فيه الشيطان بأنفسهم عن ربهم والسعي لتحقيق توحيده كما قال فرعون لموسى {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} فأراد أن يصده عن التوحيد بتذكيره بذنبه وتعظيمه في عينيه {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} فلم يكن عليه السلام أسير ذنبه بل كانت توبته مفتاح المواهب الربانية، وكذلك كانت توبة سليمان عليه السلام قال تعالى {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، وقال عز وجل عن يونس عليه السلام {لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}؛ فتوبة الأنبياء عليهم السلام سببا لتحقيق الغايات وبلوغ اعلى المقامات ، وكم من المواهب الربانية والفتوح الرحمانية كان سببها ذنب أصابه العبد ثم تاب منه قال تعالى {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى}، ومن العبودية درجات لا يبلغها العبد إلا بذنب يكتب عليه! وقد أفاض إبن القيم في تقرير ذلك والكشف عن وجوه تعلقه بالتوحيد في فصل (لطائف أسرار التوبة) من كتاب [مدارج السالكين] وقال في خاتمته [فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهين بها فلعلك لا تظفر بها في مصنف البتة، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق] "مدارج السالكين: ١/٦٣٢".

مسألة/ أعظم الإستغفار قول (لا إله إلا الله) فإن التوحيد أعظم ما يكفر الذنوب، ومن هنا كان إستغفار الأنبياء {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} وفي الحديث [سَيِّدُ الِاسْتِغْفارِ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى

عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ. إذا قالَ حِينَ يُمْسِي فَماتَ دَخَلَ الجَنَّةَ وإذا قالَ حِينَ يُصْبِحُ فَماتَ مِن يَومِهِ مِثْلَهُ] البخاري.

وفي الأثر [إن إبليس قال: أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالإستغفار وبـ(لا إله إلا الله) فلما رأيت ذلك منهم بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا] "مفتاح دار السعادة"، قال سفيان الثوري [ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول (لا إله إلا الله)]، وقد رقى بعض أهل العلم في الرياض رجلا ممسوسا فكان مما قالته الجن على لسانه أن الشيخ إبن باز رحمه الله كان إذا قال "لا إله إلا الله" ضاقت على الجن أرض الرياض كلها! ، وذلك أن ثقل لا إله إلا الله في الميزان ونصيب العبد من ثوابها الدنيوي والأخروي بحسب ثقلها في قلبه وإستحضاره لمعانيها ويقينه بها كما قال عليه الصلاة والسلام [من نفسٍ تموتُ وهِيَ تشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ و أنِّي رسولُ اللهِ ، يَرجِعُ ذلك إلى قلبِ مُوقِنٍ ، إلَّا غفَرَ اللهُ لهُ] احمد وابن ماجة، وفي كتاب التوحيد [باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب] قال تعالى { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}.

الخلاصة في منزلة التعظيم:

1- **مرتبة {إياك نستعين} :** الرجوع إلى الله **"خوفاً"** من عقابه والإستعانة بالتوبة لإصلاح النفس والتطهر من الذنب، فالعبد في هذه المرتبة يلحظ إساءته وتقصيره ويطلب جنة الله ويخشى ناره، فهو في ذلك ناظر إلى إيمانه بـ(اليوم الآخر) يكمل علمه به ويزداد يقينا فيه قال تعالى {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} .. وإلى هذه المرتبة أشار ربنا جل وعلا في الفاتحة بقوله "يوم الدين".
2- **مرتبة {إياك نعبد} :** الرجوع إلى الله **"خشية"** ذاته المقدسة تبارك وتعالى مهابة له وتعظيما لصفات جلاله قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ، والتعبد بالتوبة طلبا لفرحه جل في علاه ومرضاته فالعبد في هذه المرتبة يراقب إيمانه بـ**(الله)** وعلمه به وقصده إياه وقربه منه كما كان الفضيل بن عياض يقول في دعاءه في الموقف [واسوأتاه وإن عفوت] "رسائل ابن رجب: 884" .. وإلى هذه المرتبة أشار ربنا جل وعلا في الفاتحة بقوله "مالك".

وكمال التوحيد يكون بالجمع بين المرتبتين والنظر الى التوبة بكلتا العينين، ولذا جمع ربنا بين الأيمان به والإيمان باليوم الآخر في مواضع كثيرة من كتابه، وأثنى بهما على أوليائه فقال في الصحابة الكرام رضوان الله عليهم مبينا كمال توحيدهم {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ **لِوَجْهِ اللَّهِ** لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا **يَوْمًا عَبُوسًا** قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} فجزاهم على الجمع بين المقامين بحصول كلا المطلوبين: دخول الجنة، والنظر إلى وجهه الكرم جل جلاله.

(٥) من انفع الكتب في هذا الباب [العظمة] للأصفهاني، و [التذكرة] للقرطبي.

٤- منزلة التعظيم

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }(6)

إذا سكن (حب) الله و(تعظيمه) قلب العبد: اورثه ذلك التعظيم اليأس من الخلق، وأورثه الحب الرجاء في الخالق؛ فحصل له [التوكل].

والتوكل: هو إعتماد القلب على الله والإستغناء به على كل أحد والرضا به ربا مدبرا كافيا لعباده وطاعته بالأخذ بأسباب شرعه وقدره، وهو مرتبتان:

1- **مرتبة {إياك نستعين} :** وهي الإستعانة بالتوكل على قضاء الحوائج وتفريج الكرب وتيسير خيري الدنيا والآخرة، والعبد في هذه المرتبة ناظر إلى **(نفسه)** وأحوالها راغب في تحصيل الخير لها ودفع الشر عنها، وهذه المرتبة هي المذكورة في نحو قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} وهي التي أوصى بها النبي صلى الله عليه إبن عباس رضي الله عنه [يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ ، إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ].
2- **مرتبة {إياك نعبد} :** وهي التعبد لله بالتوكل عليه والإستغناء به والتلذذ بالنظر في تدبيره للتعرف عليه، فالعبد في هذه المرتبة ناظر إلى **(ربه)** وأسمائه وصفاته راغبا في زيادة العلم به وتكميل توحيده والتقرب إليه بالتوكل عليه إظهارا لكمال المحبة والتعظيم وتمام التعلق به وتجرد القلب عما سواه وهي مرتبة الصديقية، قال عمر بن عبدالعزيز [أصبحت ومالي سرور إلا مواضع القدر] لأنها تزيده بالله علما وله توحيدا.

وقد جمع ربنا جل وعلا المرتبتين في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وفيه أعظم البيان أن التوكل هو "الغاية" وهو "الوسيلة" : أي نتوكل عليك لتبلغنا تمام توحيدك والعلم بك ومحبتك وتعظيمك والتعلق بك قال إبن تيمية [تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم وجدته في الفاتحة {إياك نعبد وإياك نستعين}] "مدارج السالكين".

مسألة/ هذه الآية الكريمة {إياك نعبد وإياك نستعين} هي خلاصة (علم التوحيد) فما من مسألة من مسائله إلا وهي راجعة إليها، وذلك أن التوحيد شقان:-

- **الأول/** توحيد القصد والطلب: وهو ما يتعلق بأفعال العبد، وهو المشار إليه في شق الآية الثاني "إياك نعبد" فكل صورة من صور التوحيد فيه هو تطبيق لها وكل صورة من صور الشرك فيه هو إخلال بها.
- **الثاني/** توحيد المعرفة والإثبات: وهو ما يتعلق بأفعال الرب وأسمائه وصفاته، وهو المشار إليه في شق الآية الأول "إياك نستعين"، فكل صورة من صور التوحيد فيه راجعة إلى العلم بالله وكل صورة من صور الشرك فيه راجعة إلى الجهل به.

ومن عظيم فقه (إخوان من طاع الله) رحمهم الله وكمال توحيدهم أن هذه الآية كانت شعارهم في التوحيد وكانوا يحدون بها قوافلهم ويهتفون بها عند كل عمل.

وحقيقة التوكل: ترك إلتفات القلب لغير الله -لا ترك الأسباب- قال تعالى {إهدنا الصراط المستقيم} أي إستقامة القلب لك، وقال {فأقم وجهك للدين حنيفا} أي مستقيم القلب لله معرضا عن الإلتفات لغيره ولذا جاء في خبر إبراهيم عليه السلام مع هاجر وإبنها [وجعل لا يلتفت إليها] البخاري، وجاء في وصف الصديق رضي الله عنه [وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاة] البخاري، وحين سئل الإمام أحمد: أي شيء صدق التوكل؟ قال [أن لا يكون في قلبك أحد من الآدميين] "التوكل لإبن أبي يعلى" .. وهذا كله من كمال توحيدهم!.

أركان التوكل: التوكل إنما يحصل بثلاثة أمور:-

1- العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهذا مقتضى البسملة، قال يعقوب عليه السلام {وأعلم من الله مالا تعلمون}.
2- الرضى به ربا في شرعه وقدره -الذين هما ظل لأسمائه وصفاته جل وعلا-، وهذا مقتضى الحمدلة، قال عليه الصلاة والسلام [رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا].
3- الإستسلام والإنقياد له في ذلك كله: بالأخذ بأسباب شرعه وقدره، وهذا مقتضى الحسبلة، قال تعالى {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي **الأيدي** و **الأبصار**} فأثنى عليهم بالجمع بين أسباب الشرع والقدر.
ولما كان الإيمان قول وعمل كان الإخلال بالأسباب القدرية إخلال بالعمل فهو نقص في كمال الإيمان قال عليه الصلاة والسلام [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف]، فالأخذ بالأسباب من صميم **"التوكل"** وهو من تحقيق التوحيد وأما تركها فهو **"تواكل"** وأقل أحواله أنه (نقص أدب) مع الله وقد يصل إلى (البدعة) إن جمع إليه إعتقاد.

فائدة: أعظم التوكل هو التوكل على الله في (تحقيق التوحيد) وذلك من وجهين:

- **الأول/** أن التوحيد هو أعظم مقصود وأشرف مطلوب [والتوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه هذا توكل الرسل و الأنبياء عليهم السلام] "مدارج السالكين".
- **الثاني/** أن التوحيد هو أعظم سبب لحصول كل خير ي الدنيا والآخرة: قال إبن القيم [ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد] "الفوائد 73"، وقال الإمام محمد [باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب].

قال إبن القيم [وكثير من الناس مغبون في توكله، وقد توكل حقيقة التزكل وهو مغبون! ، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية إستفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيرا، فهذا تكل العاجز القاصر الهمة] "مدارج السالكين".

مسألة/ إعلم رحمك الله أن أعظم القواعد المقررة في باب فضل الثواب -الدنيوي والأخروي- : أن النصوص الواردة في فضل عمل من الأعمال إنما هي في حق من جاء به على وجهه الشرعي على جهة الكمال؛ ففي التوكل مثلا إنما تتحقق ثمرته على جهة الكمال لمن جاء بأركانه الثلاثة (العلم بالله) و (التعلق به) و (الإنقياد لأسباب شرعه وقدره)، فبقدر كمال تحقيق العبد لهذه الأركان الثلاثة يحصل له كمال ثواب التوكل الدنيوي والأخروي، وبقدر نقصه يُنقص من ثوابه وفي الحديث [إنَّ العبدَ لَيصلِّي الصَّلاةَ ما يُكتُبُ لَهُ منْها إلَّا عُشرُها، تُسعُها، ثمنُها، سُبعُها، سُدسُها، خمسُها، ربعُها، ثلثُها نصفُها] ابو داود.

فإحفظ هذه المسألة التي تزيل عنك اللبس في سائر الأبواب ، وإعلم أن أول بدعة ظهرت في الإسلام كان منشأها الجهل في أبواب (الوعد والوعيد).

(6) من انفع الكتب في هذا الباب [التوكل] لإبن أبي يعلى، ومنزلة (التوكل) من كتاب [مدارج السالكين] لإبن القيم، و[صلاح الأمة في علو الهمة] للعفاني .

أما بعد فإن الله عز وجل يقول {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} وهذه المنازل الأربعة (العلم، والمحبة، والتعظيم، والتوكل) هي أصول المنازل وقاعدة التوحيد التي منها ينطلق العبد في طريق تحقيقه فهي أول الطريق وآخره وما سواها من المنازل راجعة إليها وهي ثمرة منها وثواب عليها وزيادة فيها! ، ويدل على ذلك حديث قسمة الصلاة فإن الله جعل كل ما بعد {إياك نعبد إياك نستعين} ثمرة لها.

هدايات

١- أول الطريق أن يعرف العبد منزلته في العلم والإيمان والقدرة و يعمل بأمر الله فيها، ثم يسعى بعد ذلك لما فوقها من الدرجات بتحصيل الأسباب الإيمانية والقدرية وعلى هذا المعنى يحمل قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام {أولم تؤمن قال بلى} أراد أن يبصره منزلته في التوحيد ليطلب بعدها ما هو أعلى منها.

٢- ملازمة أهل التوحيد وصحبة أخبارهم وإدمان النظر في كلامهم فإن ذلك يحيي القلب لذا أهل العلم [القصص جند من جند الله] "الإعلان بالتوبيخ"، قال تعالى { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} .

٣- إحسان العمل: قال إبن مسعود رضي الله عنه [أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم، قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة] ابن ابي شيبة، والمستكثر بالأعمال الشاق على نفسه مخل بكمال التوحيد من جهتين:

أولا/ الإبتداع وإتباع نسك العجم.
ثانيا/ أن هذا التكلف لا يأتي إلا من كبر خفي، ومن حكمة الأعراب قولهم [لا تقاوي الله] وفي الحديث [ما شاد الدين أحد إلا غلبه] وذلك عقوبة له على إستكباره وظنه أنه يأتي من العمل بشيء يكبر في عين الله وهو جل وعلا القائل [الكبرياء ردائي] وما ورد عن النبي والصحابة من شدة اجتهاد فإنما فعلوه بطول المداومة على العبادة والإستزادة منها شيئا فشيئا بغير تكلف ولا تصنع ولكن النفوس إذا ألفت الشيء سهل عليها وطلبت منه الزيادة روى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن مسعود 4742 قال: "تعودوا الخير فإنما الخير بالعادة".
وأول الإحسان هو إحسان الفرائض علما وعملا ففي الحديث القدسي [وَمَا تقرَّبَ إِلَيَ عبْدِي بِشْيءٍ أَحبَّ إِلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ] .
ومن فقه الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا متى رأوا من أنفسهم شدة خشوع في الصلاة وإقبال قلب خففوا صلاتهم ولم يطيلوها مخافة أن يدركهم الشيطان فيفسدها عليهم والله عز وجل يقول {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} فالعبرة بإحسان العلم لا بكثرته وإحسان الصلاة إستقامة القلب فيه وتمام توجهه لله وهذه المسألة تكشف لك عن عظم فقه الصحابة وكمال توحيدهم وتمام علمهم بمقاصد الصلاة التي من أجله شرعت قال إبن القيم [والأنس بالله حالة وجدانية وهي من مقامات الإحسان تقوى بثلاثة أشياء : دوام الذكر ،وصدق المحبة ، وإحسان العمل] مدارج السالكين .

٤- دوام المراقبة : وقد فرد الإمام محمد لذلك الباب الثالث في كتاب التوحيد [باب الخوف من الشرك] ، والله يقول {أفأمنوا مكر الله} وفي الأثر أن جبريل عليه السالم بكى وقال [لعلي أكون في علْم اللهِ على غيرِ الحالِ التي أنا عليها ، وما أدري لعليِّ أُبتلى بما ابتُلِيَ به إبليسُ فقد كان من الملائكةِ ، وما أدري لعلي أُبتلى بما ابْتليَ به هاروتُ وماروتُ] ، وليس ذلك سوء ظن من العبد بربه ولكنه معرفة منه بضعفه وقصوره.

٥- الإعتبار بحال أهل الشرك والبدع والتبصر بباطلهم فإن ذلك مما ينفر النفس عنه ويرغبها في الإزدياد من التوحيد قال إبراهيم عليه السلام {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ} ، وفي الحديث [ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ : -ومنها- و أنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النارِ]،والشرك مراتب أربعة كلها يخل بالتوحيد :

- الأول/ ما يُنقص "كمال" التوحيد: وهو (الشرك الخفي) كقولهم [لولا الله وفلان] ، وإخلاله بالتوحيد من باب نقص الأدب .
- الثاني/ ما ينقض "كمال" التوحيد: وهي (البدع)، وهي من الشرك: لإخلالها بكمال التحاكم -مقتضى لا إله إلا الله-، وكمال المتابعة -محمد رسول الله-، ولأنها ذريعة للشرك.

- **الثالث/ ما يُنقص "أصل" التوحيد: وهو (الشرك الأصغر) كالحلف بغير الله .**
- **الرابع/ ما ينقض "أصل" التوحيد: وهو (الشرك الأكبر) الذي يخرج صاحبه من الملة.**

٦- لزوم سمت العرب وإمتلاء النفس بأخبارهم وآدابهم وحكمتهم، فإن كل خلل يدخل على الناس إنما يكون من عجمة أصابتهم: في (اللسان) فيحمل الكلام مالا يحتمل أو يسمي الأشياء بغير إسمها، أو (العقل) فيفهم الأشياء فهما سقيما ويزن الأمور بميزان أعوج، أو (الذوق) فيستقبح ما هو حسن ويستحسن ما هو قبيح؛ فهذه الثلاثة هي أصول البدعة قال الطبري رحمه الله [قالوا: وكان كتابه -عثمان رضي الله عنه: إلى العامة: أما بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الكفر في العجمة)، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا] "تاريخ الطبري" (4 / 245)، والبدعة كالشرك مراتب أربعة:

- **ما يُنقص كمال السنة: وهو نقص الأدب كالبطنة ونحوها قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها [أول بدعة حدثت بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الشبع] "الجوع لإبن أبي الدنيا".**
- **ما ينقض الكمال: كالنسك الأعجمي، وهجر النوافل.**
- **ما يُنقص الأصل: وهو موافقة أهل البدع في بعض المسائل الجزئية.**
- **ما ينقض الأصل: وهو موافقة أهل البدع في أصول مذاهبهم، وصاحبه هو "المبتدع" الذي خرج عن دائرة أهل السنة والجماعة.**

٧- ورأس الأمر الدعاء وصدق اللجأ فإن ما عند الله لا ينال إلا بسؤاله، ألست ترى إبراهيم عليه السلام يقول {ربنا وإجعلنا مسلمين لك} {ربي ارني كيف تحيي الموتى} {رب اجعلني مقيم الصلاة} الآيات، قال تعالى {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها}.

والله أعلم والحمد لله رب العالمين